﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [النّحل: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلةُ تَعْديد نِعَمِ اللهِ في خَلْقِ الأنعام، وتسخيرها للأنام

بعد أن ذكرَ اللهُ تعالى من جُملةِ نِعَمِه على عباده أنَّه خلق لهم ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ [النحل: 5] منطويةً على جُملةٍ من النِّعم، كلّها مهمَّة على تفاوتٍ بينها في الأهمّيّة، فـ ﴿فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ [النحل: 5]، وأيضًا هي لكم زينةٌ في غُدوِّها ورَواحِها ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل: 6] ذكر سبحانه بعد ذلك تعدادَ منافعِها، فقال: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾: أصلُ الثِّقْل يُطلق على ضدِّ الخفَّة، فالثِّقْل والخفَّة متقابلان، فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به أو يُقدَّر به يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أثْقَلَه الغَرْم والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطّور: 40][1] والثَّقَلُ: متاعُ المسافر وحَشَمُه، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]؛ أيْ: آثامهم وأوزارهم، والمُرادُ في الآية: متاعُ المسافر[3] وأغْراضُه.

2) ﴿بَلَدٍ﴾: أصْلُ البلد الصَّدْرُ. يُقالُ وضَعَتِ النّاقَةُ بَلْدَتَها بالأرْضِ، إذا بَرَكَتْ، قالَ ذو الرُّمَّة[4]:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(2) الخليل، العين: (ثقل).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 176.
(4) الباهليّ، ديوان ذي الرُّمَّة: 2/ 1004.

أُنِيخَتْ فأَلْقَتْ بَلْدَةً فوْقَ بَلْدَةٍ *** قَلِيلٍ بِها الأَصْواتُ إلّا بُغامُها

وَيُقالُ: تَبَلَّدَ الرَّجُلُ، إذا وضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ عِنْدَ تَحَيُّرِهِ في الأمرِ[1]، والبَلَدُ: كلُّ موضعٍ مُسْتَحيز من الأرض، عامرٍ أو غيرِ عامرٍ، خالٍ أو مَسكونٍ[2]، وخصَّها الرّاغبُ بالمسكونة فقال: البلدُ: المكانُ المُحيط المحدود المُتأثِّر باجتماع قُطّانِه وإقامتهم فيه، وجمعُه: بِلاد وبُلْدان[3]، والبلد في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1] هي مكَّة على الأرجح، وتأثَّر بعضُهم فذكر أنَّ البلد في هذه الآية أيضًا: هي مكَّة[4]، لكنَّ المُرادَ في الآية على الصَّحيح: جنس البلد الَّذي يرتحلون إليه، فهو عامٌّ لكل بلد بعيد[5]؛ أيْ: أيُّ بلدٍ يقصدونه، وليس مكَّة فقط ولا غيرها ممّا نصَّ عليه بعضهم.

3) ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾: أصل (شقَّ) يَدُلُّ عَلَى انْصداعٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ويُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الاسْتِعارَةِ، تَقولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبِيَدِهِ شُقوقٌ، وبِالدّابَّةِ شُقاقٌ ... ويُقالُ: أصابَ فُلانًا شِقٌّ ومَشَقَّةٌ، وذَلِكَ الأمرُ الشَّديدُ كَأَنَّهُ مِنْ شِدَّتِهِ يَشُقُّ الإنْسانَ شَقًّا[6]، والشِّقُّ بِالكَسْرِ نِصْفُ الشَّيْءِ، والشِّقُّ المَشَقَّةُ، والشِّقُّ الجانِبُ، والشِّقُّ الشَّقِيقُ، وجَمعُ الشَّقِيقِ: أشِقّاءُ، مِثْلُ شَحِيحٍ وأشِحّاءَ، والشَّقُّ بِالفَتْحِ: انْفِراجٌ في الشَّيْءِ وهوَ مَصْدَرٌ في الأصْلِ، والجَمعُ: شُقوقٌ؛ مِثْلُ فلْسٍ وفُلوسٍ[7]، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦﴾ [عبس: 26]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: 1] والشِّقُّ: المَشَقَّةُ والانكسار الَّذي يلحق النَّفس والبَدن، والشُّقَّةُ: النّاحية الَّتي تلحقُك المشقَّةُ في الوصول إليها، قال تعالى: ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التَّوبة: 42][8] وهو المعنى المُرادُ في الآية؛ أيْ: لو لم تُخلقِ الإبل لم تكونوا بالِغيه إلّا بجهدٍ ومشقَّة[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلد).
(2) الخليل، العين: (بلد).
(3) الرّاغب، المُفردات: (بلد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 170، وقد نقله عن عكرمة.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 170، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 97، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شق).
(7) الفيّوميُّ، المصباح المنير: (شقق).
(8) الرّاغب، المُفردات: (شق).
(9) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 204، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 72، والسَّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 194.

4) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: أصل (رأف) يَدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحْمَةٍ؛ وهِيَ الرَّأْفَةُ[1]، والرّأفة: الرَّحمة[2]، وقيل: الرَّأْفَةُ: أشدُّ الرَّحمة[3]، والرَّؤوف اسم من أسماء اللّه ﷻ، وهو من جنس الرَّحمة، ولذلك يُذكر عادةً في الكتاب العزيز متبوعًا بها، سواء فيما يتعلّق باللّه ﷻ كما هنا ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أو كان متعلِّقًا بالرَّسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبة: 128].

5) ﴿رَّحِيمٌ﴾: الرَّحيم اسم للّه تعالى مُشتقٌّ من الرَّحمة، ومِثْلُه في الاشتقاق من الرَّحمة اسمُ اللّه (الرَّحمن)[4]، ومن الفروق بينهما أنَّه لا يُطلَق (الرَّحْمَنُ) إلّا على اللّه تعالى من حيث إنَّ معناه لا يصحُّ إلّا له؛ إذ هو الَّذي وسِعَ كلَّ شيء رَحْمَةً، و(الرَّحِيمُ) يُستعمل في غيره وهو الَّذي كثُرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: 182]، وقال في صفة النَّبيِّ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبة: 128][5]، وبناء ﴿رَّحِيمٌ﴾ على المبالغة من الرَّحمة كسائر أسماء اللّه وصفاته المُتعدِّي أثرُها إلى الخَلق، فإنَّ بناءها على المبالغة، فهي إمّا على فعيل كـ (رحيم)، و(حليم)، أو فعول كـ (غفور)، و(شكور)، أو فعّال كـ (غفّار)، و(توّاب)، ومعنى ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أيْ: يبلِّغُكم السَّلامة من المَشقّات بالرَّأفة، وتَرْقِية المنعِمات بالرَّحمة[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ومن المنافع الّتي خلق اللّه لكم الأنعام لأجلها، ومن نِعَمِه عليكم

بيان أنَّ خلقَ الأنعام كان رأفةً ورحمةً بالعباد لدفع المشقَّة والمعاناة عنهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأف).
(2) الرّاغب، المُفردات: (رأف).
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/ 177.
(4) الخليل، العين: (رحم).
(5) الرّاغب، المُفردات: (رحم).
(6) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويِّ: 9/ 5616.

أنَّها تحمِلكم وتحمِل أمتعتَكم وحاجاتِكم إلى أماكنَ بعيدةٍ، ما كنتم لتصلوا إليها إلّا بِعَنَتٍ شديد ومشقَّةٍ مُجْهِدَةٍ، تكاد أن تذهبَ بنصف قوَّتكم، لولا أنَّ الله تعالى رفع عنكم هذه المشقَّةَ، فسخَّر لكم هذه الإبلَ من الأنعام لتقوم بذلك، وما ذلك إلّا لأنَّ الله تعالى رؤوفٌ بكم يرفع عنكم بخَلْق الأنعام وتَذْليلها المشقّات، رحيمٌ بكم كذلك يشملُكم بِنِعَمه ويُرقِّيكم في المَكرُمات.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾:

الوصل في الآية الكريمة للجُمل يكْمِلُ ملامح المعنى ويُجلِّيه

الواو عاطفة، عطفت هذه الجملةَ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ على ما قبلَها، وهي جملة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: 6][1]، وكِلاهما مشترَك في حكم أنَّهما من نِعم الله ﷻ في خَلْقِ الأنعام لعباده.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿وَتَحْمِلُ﴾:

التَّعبير بالفعل المضارع يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ

عبَّر بالفعل المضارع للدَّلالة على استمرار قيامها بهذا وتكرُّره، وتجدُّده كلَّما احتيج إليها في حمل أثقالِ النّاس وأمتعتِهم، ولا يزال النّاس حتَّى يومنا هذا الَّذي وُجدت فيه البدائلُ من الطّائرات والسَّيارات والسُّفن العملاقة، لا يزالون يستخدمون الإبل للحَملِ في الأماكن الَّتي لا تستطيع السَّياراتُ دخولَها، وهذا واقعٌ مُشاهَد.

عود الضَّمائر في ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾:

الإبل تتفرَّد بين الأنعام لكونها المُهيَّئة لحمل الأثقال

أمّا ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ﴾؛ فيعود إلى أشْهَر الأنعام المُعدَّة للحُمولة عندهم وهي الإبلُ، بطريق القرينة[2]، والقرينةُ هي قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ﴾؛ لأنَّ الَّذي يحمل الثِّقال من الأنعام هي الإبل.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 105، والخرّاط، المُجْتَبى من مُشكِل إعراب القرآن: 2/ 570.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.

وأمّا الكاف في ﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾؛ فإنَّها تعود إلى كلِّ مَن يصلح للخطاب، سواءٌ الَّذين كانوا موجودين وقت صدورِه أم مَن وُجدوا بعدَه، بل ومَن سيوجَدون كذلك.

بلاغة الكناية عن بلوغ البلد بحمل الأثقال:

طَيُّ ما يُمكِن الاستغناء عنه في الكلام تحقيقًا للإيجاز

وعلى طريقة القرآن في الإيجاز وطيِّ ما يُمكِن الاستغناء عن التَّصريح به، مع توفُّر ما يدلُّ عليه، نجد الآيةَ الكريمة تكتفي بذِكر الحَملِ دون ذِكر بلوغِ المقصَد، وهو البلد الَّذي يودُّ المحمول أن يصل إليه هو وأمتعتُه، وهي كنايةٌ قريبة من التَّصريح، ولذلك عقَّب بقوله تعالى: ﴿لَمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾[1].

نكتة تنكير لفظ ﴿بَلَدٍ﴾:

كـلُّ بلد يصلح لهذا الموصوف لا على التَّعيين

تنكير ﴿بَلَدٍ﴾ له دلالتان: الأولى: شيوع المقصود بالبلد، وعدمُ حصرها في بلد مُعيَّن، خِلافًا لمَن قال: إنَّها مكَّة أو الشّام، وهو ما ينبغي أن يُحمل من قائليه على مُراد التَّمثيلِ[2]، لا على التَّعيين.

الثّانية: أن يكون التَّنكير للتَّفخيم والتَّهويل[3]؛ أيْ: تفخيمُ هذا البلد وتهويله؛ للدَّلالة على معنى البُعدِ الشَّديد فيه، ويُؤيِّده قوله تعالى بعدها: ﴿لَمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾.

دلالة موقع ﴿لَمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾:

نَـأْيُ البلد فيه مشقَّة ورَهَق

وقوله: ﴿لَمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾، صفة لـ ﴿بَلَدٍ﴾[4]، وهي مفيدةٌ معنى البُعْدِ، لأنَّ بلوغ المسافر إلى بلدٍ بمشقَّة، هو من شأن البلدِ البعيد[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 508.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويِّ: 4/ 248.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 194.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَكُونُواْ﴾:

النَّفي بالمضارع يـــــدلُّ عـلى استمرار النَّفي

وعبَّر بالمضارع في جملة النَّفي، للدَّلالة على استمرار نفي أن يبلغَ المخاطبون، ومَن في حُكْمِهم ما يقصِدون من البلاد البعيدة إلّا بشقِّ الأنفس؛ لولا أن سخَّر الله لهم الأنعامَ، لتقوم بنقلِهم إليها، فهي حالةٌ مُتكرِّرة مُشاهَدة.

بلاغة القصر في ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾:

نـعـمـةُ خـلـق الأنعام عظيمة، لأنَّـهـا تـحـمـل عنهم الأثقال

وقوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ فيه أنَّ القصْر المُستفاد هنا من النَّفي والاستثناء قَصْرٌ إضافيٌّ، وهو قَصْر موصوفٍ على صفة، والمقصودُ به مَن يَعْنيهم الخطابُ، سواءٌ الّذين عاصروا التَّنزيل، أو مَن في حكمهم حتَّى يومنا هذا، فبلوغهم البلادَ البعيدةَ لا يكون إلا مُلتبسًا بشقِّ الأنفس، لولا أن خلق الله تعالى لهم الأنعامَ ليركبوا عليها، وهدفُ القصر التَّأكيد على هذا المعنى، لِلَفْتِ نَظَرِ المخاطَبين إلى أمرٍ قد يغفُلون عن إدراك قيمته الكاملة لكثرة المُلازَمة، وهو نعمةُ الحَمل والتَّنقُّل، والمُلازمة والاعتياد من دواعي الغفلة عند الإنسان.

معنى الباء في قوله ﴿بِشِقِّ﴾:

لـزومُ المشقَّة في أسـفـار الـنـاس لـــولا نـعـمـةُ الأنعام

والمعنى: لم تكونوا بالِغيه إلّا مُلتبسين بمشقَّةٍ شديدة، بدون استخدام الأنعام الّتي سخَّرها الله لكم، لتُخفِّف عنكم، فهي من جُملة نِعَمه عليكم، قال الإمام البغوي: "أيْ: بِالمَشَقَّةِ والجُهْدِ، والشِّقُّ: النِّصْفُ أيْضًا أيْ: لَم تَكونوا بالِغِيْهِ إلّا بِنُقْصانِ قوَّةِ النَّفْسِ وذَهابِ نِصْفِها"[1].

لـولا نعمة الله عـلى الـنّـاس في خـلـق الأنـعـام، لـبـلـغـت بـهـم المشقَّةُ مَبلغًا لا يُطاق

فائدة القَيْد ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾:

وفائدة القَيْد ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ التَّذكيرُ والتَّنصيص على قيمة نعمةِ الله ﷻ في تسخير الأنعامِ لهذه المهمَّة العظيمة، وتلك النِّعمةِ

(1) البغويّ، معالم التنزيل: 3/ 72.

الجليلة، وهي نعمة حَمل النّاس وأمتعتِهم إلى الأماكن البعيدة، الّتي يشقُّ الوصول إليها من دونها.

لكن هل يعني ذلك أنَّهم كانوا في زمنٍ سابقٍ يسافرون ويحملون أثقالَهم، ثمَّ بعد ذلك حملتها الإبل؟ أم إنَّ هذا ليس مقصودًا؟ وهذا سؤال وجَّهه صاحب الكشّاف وأجاب عنه فقال: فإن قلتَ: ما معنى قوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ كأنَّهم كانوا زمانًا يتحمَّلون المشاقَّ في بلوغه حتَّى حملت الإبل أثقالَهم؟ قلتُ: معناه: وتحمل أثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالِغيه في التَّقدير لو لم تُخلق الإبلُ إلا بجهد أنفسكم، لا أنَّهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة[1].

بلاغة المجاز في: ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

الكناية والمجاز العقليّ وجهان بلاغيّان، لَهُما وجاهتُهما

في هذا التَّعبير أكثر من وجه بلاغيٍّ منه: **الكنايةُ**: وذلك لأنَّ الشِّقَّ: أحد نصفي الشَّيء، وعلى هذا فكأنَّ التَّعبير به، كناية عن ذهاب نصفِ القوَّة لِما يلحَق من الجَهد[2].

ومنه **المجازُ** العقليُّ: وذلك في إسناد الشِّقِّ - بمعنى المَشَقَّة - إلى الأنفس، مع كون الَّذي يشعر بالمَشَقَّة هو الجسد، فإنَّ آثاره تقع عليه، إلّا إذا حُملت الأنفسُ على الذَّوات.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

مشقَّةُ السفر على كل الأنفس

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَنفُسِۚ﴾، هي الجنسيَّة الاستغراقيَّة الّتي تشمل كلَّ الأنفس، والمُراد بذلك أنَّه لا تخلو نفسٌ من معاناة المشقَّة، في بلوغ هذا البلد، ممّا يُدلِّل على فضل نعمة الله تعالى علينا بهذه الأنعام الّتي تحمل هذه الأثقال.

بلاغة توجيه القراءات في ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾:

القراءات في كلمة (بشِقّ) وتوجيهها

قراءة العامَّة على كسرِ الشِّين ﴿بِشِقِّ﴾، وقرأ أبو جعفر، وروِيَتْ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 595، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 106.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 109.

عن نافع وأبي عمرو بفتحها (بِشَقِّ)، وفي توجيههما: قيل: هما مصدران بمعنًى واحدٍ؛ أي: المَشَقَّة، فمِنَ الكسر قولُه:

وذي إبلٍ يسعى، ويَحْسِبُها له *** أخي نَصَبٍ مِنْ شِقِّها ودَؤوبِ

أيْ: مِنْ مَشَقَّتها، وقيل: المفتوحُ المصدرُ، والمكسورُ الاسمُ، وقيل: بالكسرِ نصفُ الشَّيء، وقيل: هما لغتان مثل: رِقٍّ وَرَقٍّ وَجِصٍّ وَجَصٍّ[1].

بلاغة الاحتباك في الآية الكريمة:

السّياق يُظهر جمالَ الحذف ودوره في سياق الآية الكريمة

قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾، في الآية نوعٌ من الاحتباك: حيث حُذف المقابِل من كلِّ جملة لدلالة ما في الجملةِ الأخرى عليه؛ فقد ذكر حَملَ الأثقال أوّلًا، دليلًا على حَمل الأنْفس ثانيًا، وذكر مشقَّة البلوغ ثانيًا، دليلًا على مشقَّة الحَمل أولًا[2].

نكتة فصل جملة ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ﴾:

كون الجملة علّة لما قبلها، يشير إلى دقّة المباني في التّعبير عن المعاني

نكتة فصل قوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لأنَّ هذه الجملة علَّة لِما قبلها، فالفصل لكمال اتِّصالها بها؛ أيْ: أنعم الله عليكم بكذا وكذا؛ لرأفته الكاملة، ورحمته الشّاملة.

ويُمكن أن يكون سبب الفصل شبه كمال الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لِمَ يفعل هذا كلَّه؟ فكان هذا الجواب.

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

كثرة توالي المؤكّدات دليلٌ على كبير أهميّة المؤكَّد

اشتملت خاتمةُ الآية على عددٍ من المُؤكِّدات، الغرضُ منها تأكيد أنَّه سبحانه إنَّما أنعم على عباده بهذه النِّعم لجميل صفاته وعظيم امتنانه، وليس لأنَّ الإنسان الخصيمَ المبين يستحقُّ جميلَ صُنْعِ الله به وله.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 72، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 109.

وهذه المُؤكِّداتُ هي: التَّعبيرُ بـ ﴿إِنَّ﴾ التّوكيديَّة، وهي مُزيلَة لأيِّ شكٍّ في أنَّ الله تعالى هو الَّذي أنعم بهذه النِّعم، وأنَّه ما أنعم بها إلا رأفةً منه ورحمة، وكأنَّه وُجِد من المخاطَبين مَن يشكُّ في هذا، أو أنَّه أنزلهم مَنْزِل الشّاكِّين، ليؤكّد الغرض.

والجملةُ الاسميَّة الدّالَّة على الثَّبات، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ مضافًا إلى ضمير المخاطَبين، واسم الرَّبِّ إنَّما يُعبَّر به في مقام الامتنان والإنعام، ودخولُ اللّام على الخبر ﴿لَرَءُوفٌ﴾، وهي اللّام الَّتي يُقال لها: المُزَحْلَقَة، وتأتي للتَّوكيد، واستخدام صيغتي المبالغة في اسمي (الرَّؤوف)، و(الرَّحيم).

سرُّ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة ﴿رَبَّكُمْ﴾:

اقتضاء المقام التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة لمناسبتها للمعنى المُراد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أوثر التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة، للإشارة إلى أنَّ ذلك التَّمكين من مُقتضيات الرُّبوبيَّة والقيام على شئونكم[1] أيُّها المخاطَبون.

وفي إضافته إلى ضمير المُخاطَبين استمالةٌ لغير المؤمنين وتلطُّفٌ معهم في الخطاب.

نكتة التّذييل بـ ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

تلك النِّعَمُ كلُّها من رأفة الله ورحمته بعباده

كلُّ فاصلة آيةٍ في القرآن الكريم مُمَكَّنةٌ في مكانها، قارَّةٌ فيه، وفي ختم هذه الآية بهذيْن الاسميْن الجليليْن النّازعيْن إلى رحمة اللهِ ﷻ بعباده، وتيسيرِه عليهم، بخلْقِ ما ينفعُهم ويساعدهم على بلوغ مقاصدِهم، وقضاءِ حوائجهم، فيه ما لا يخفى من التَّناسب المُتَحَف بالإنْعام والامتنانِ على العباد فضلًا من اللّه ونعمةً ورحمةً، والعادة أن يُذكر اسمُ اللهِ (الرَّؤوف)، وهو من الرَّأفة بمعنى الرَّحمة، أن يُذكر سابقًا الرَّحيم، فعلى هذا يكون جَمَعَ بين اللَّفظيْن في قوله:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4134.

﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيدًا، وحَسَّن ذلك اختلافُ اللَّفظيْن، وقيل: الرَّأفة أرقُّ من الرَّحمة، فهي أخصُّ، وعلى هذا فلا تكرار ولا تأكيد[1].

نكتة الترتيب في: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

اجتماع جمال النَّظم وكمال المعنى في التَّرتيب بين (لرَءوفٌ رَحِيمٌ)

وفي سرِّ تقديم صفةِ الرَّأفة على صفة الرَّحمةِ، قيل: لأنَّ (الرَّؤوف) أبلغُ من (الرَّحيم)، كما أنَّ من دواعي التَّقديم مراعاة الفاصلة[2]، فيكون الخَتْمُ بالصِّفتيْن الجليلتيْن وبهذا التَّرتيب، اجتمع فيه جمالُ النَّظم مع كمال المعنى، والحقيقة أنَّ الرَّأفة تقتضي الرَّحمةَ، ولذا فإنَّ تقديمَها عليها هو من تقديم السَّببِ على المُسَبَّب.

غرض تنكير الاسمين الجليليْن:

التَّنكيرُ لتحقيق غرض التَّفخيم والتَّعظيم

ونُكِّر الاسمان الجليلان، تفخيمًا وتعظيمًا، وما ينتج عنهما عظيمٌ كذلك، فهو سبحانه لكونه مُتّصفًا بهاتيْن الصّفتيْن الجليلتيْن: يدفع عنكم ما يضرُّكم، ويُبلِّغكم السَّلامة من المشقّات، ويُرقِّيكم في النِّعم والمنافعِ، برأفته ورحمتِه[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البلدُ والقريةُ والمدينةُ والمِصرُ:

المُفردات الأربعُ مواطن الاتِّفاق والافتراق والأسرار الدَّلاليَّة

الاشتراك بين جميعها في معنى الاجتماعِ والإقامة، وافتراق البلدِ عن ثلاثتها بمعنًى زائدٍ هو المكانُ الخالي المزروع، والمدينةُ والقرية في الاستعمال القرآنيِّ يتعاقبان، ويُغلِّب استعمالَ أحدهما على الآخر أحيانًا طبيعةُ السُّكان، والبلد: كلُّ موضع من الأرض متُحيَّزٍ محدود سواءٌ أكان عامرًا أم غيرَ عامر[4].

(1) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (رأف).
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 311.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/ 128، والشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويّ: 9/ 5616.
(4) الفيّوميُّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (بلد).

وخصَّه بعضهم بأنَّه المُتأثِّر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه[1]، وفي القرآن الكريم يُطلق البلد على كلِّ موضعٍ مُتحيَّز من الأرض عامرٍ أو غامرٍ، ومن إطلاقه على البلد العامرة بالسُّكان في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1] وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التّين: 3]، فهي مكّة في كليْهما، وقوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾: قُطْر أو مدينة، ومن إطلاقِه على غير العامر بالسُّكان قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [الأعراف: 57][2].

وقيل: سُمّيت المفازةُ بلدًا؛ لكونها موضعَ الوحشيّات، والمَقْبَرَةُ بلدًا؛ لكونها موطنَ الأموات[3].

ومعنى هذا أنَّ لفظ البلد يُطلق على كلِّ بقعةٍ من الأرض متحيَّزةٍ محدودة، مهما كانت عامرةً بالسّكّان، أو غيرَ عامرة بهم لكنَّها مزروعةٌ بسُقْيا الماء النّازل من السَّماء، بعد أن كانت مَواتا.

القرْيَة: أصل (قرى) يَدُلُّ عَلَى جُمَعٍ واجْتِماعٍ، وسُمِّيَت القريةُ بهذا الاسم لِاجْتِماعِ النّاسِ فِيها[4] من قَوْلهم: قَرَيْتُ الماءَ فِي الحَوْض إذا جمعتَه فِيه، وهي عبارة عن الأبْنِيَة الَّتِي تجمع النّاس[5].

المدينة: المَدِينة اسمٌ لكلِّ حِصْنٍ يُبنى في أُصْطُمَّة - الوسط ومعظم الشّيء - من الأرض، والجمع: مدائن ومُدُن ومُدْن، مأخوذ من: مَدَن بالمكان؛ أيْ: أقام به[6].

المِصْر: اسمٌ لكلِّ بلد مَمصور؛ أيْ: محدود[7]، والحاجز والحدُّ بين الأرَضِيْن، تقول: اشتريت الدّارَ بمُصورها؛ أيْ: بحُدودها، والمِصْر واحدُ الأمصار (بلدٌ أو مساحة تُحَيَّزُ وتُحَدَّد حدودُها - لا كالصَّحراء بغير حدود)، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 61][8].

(1) الرّاغب، المُفردات: (بلد)، والفيروزابادِيّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2، 272.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلد).
(3) الفيروزابادِيّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 273.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرى).
(5) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 735.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (مدن)، والفيروزابادِيّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 494.
(7) الرّاغب، المُفردات: (مصر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مصر).

ومن خلال هذا العرض يظهر لنا أنَّ جميعَها تشترك في المكان المُعيَّن المحدود العامر بإقامة النّاس فيه وتجمُّعهم، غير أنَّ البلد تزيدُ على ثلاثتِها بأنَّها قد تُطلق على المكان غيرِ العامر بالسُّكان أيضًا، لكنَّه غامرٌ بالماء والزِّراعة.

ويتبيَّن لنا كذلك أنَّ كلَّ لفظ منها يُمكن أن يُطلق على معنى الآخر باعتبار الاجتماع فيه.

وأمّا القرية والمدينة في استعمال القرآنِ الكريم، فيظهر أنَّهما قد يتعاقبان، وأنَّ كلًّا منهما يُطلق على الآخر، كما قال ابنُ كثيرٍ في معنى قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]: قال: في هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلاقِ القَرْيَةِ عَلَى المَدِينَةِ؛ لِأَنَّهُ قالَ أوَّلًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ [الكهف: 77]، وقالَ هاهُنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82][1].

غيرَ أنَّ الغالب في اسم القرية أن يُطلق على المكان حالَ ذمِّه، واسم المدينة يُطلق عليه حالَ مدحه.

وهو الفارقُ الَّذي يظهر في عددٍ من الآيات الكريمةِ، ويُبْرِزُه في وضوح ما جاء في سورة الكهفِ المذكورةِ قريبًا في قصَّة موسى ﷺ والخَضِر، حيث قال سبحانه: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]، فذكرها باسم القرية حالَ ذمَّ أهلها بالبخل.

ثم قال عنها بعد ذلك: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: 82]، فذكرها باسم المدينة، حالَ ذِكْر الغلامَيْن اليتيمَيْن ابنيِ الرَّجل الصّالح.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 185.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»